الصراع اللغوي في المغرب العربي بين التغريب والتعريب

حميدات ميلود

جامعة الأغواط

نعالج في مقالنا هذا إشكالية الصراع على النفوذ بين اللغة العربية واللغة الفرنسية، والذي هو صراع وتفاعل قديم، بدأ منذ وجود الاستعمار الفرنسي في بلاد المغرب العربي، وقد قامت الدوائر الثقافية الاستعمارية بمجهودات محمومة لفرض اللغة والثقافة الفرنسية، رغبة في إلحاق دول المغرب العربي بفرنسا، سياسيا وثقافيا واقتصاديا، واستخدمت لذلك وسائل مختلفة، وقد كان الأمر أكثر شدة وحدّة في الجزائر، لأن استعمارها كان يستهدف القضاء على هويتها وإلحاقها كليا بفرنسا، ولما أفشلت الثورة الجزائرية تلك المخططات، اعتمد أساطين الاستعمار مقاربة أخرى هي الاستعمار الثقافي، وذلك بفرض الفرنسة والتغريب، الذي زاد حدة بعد الاستقلال لضمان بقاء السيطرة الفرنسية على دول المغرب، من خلال ثقافتها ولغتها، والنخب المفرنسة التي كونتها. كما اعتمدت دول المغرب العربي بعد الاستقلال سياسات التأصيل من خلال استعادة الهوية والتعريب ومعالجة أثار التغريب، وقد عرفت تلك السياسات حالات الصراع مع مخططات التغريب، وقد تفاوتت النتائج بين قطر وأخر لخصوصيات كل قطر.

المحور الأول: اللغة الفرنسية والتغريب:

1) الفرنسة ونشر التغريب في المغرب العربي:

أود أن أوضح أن في تناولنا للغة كوسيلة من وسائل الغزو الفكري، لا نقصد جانبها الظاهري فقط باعتبارها مجموعة من الإشارات التي تصلح أن تكون وسيلة اتصال. وإنما نتناول اللغة من زاوية أعمق وخاصة في ارتباطها بالثقافة ومظاهرها.

إن نشر الثقافة الأوربية في المغرب العربي ارتبط أساسا بنشر اللغة، وخاصة اللغة الفرنسية الذي شكل المغرب العربي–لظروف تاريخية– مجالا ثقافيا، وفضاء سياسيا تابعا للثقافة والوجود الفرنسي سواء في فترات الاستعمار أو بعد الاستقلال.

ولذلك لم يكن نشر اللغة الفرنسية معزولا عن أبعادها الثقافية، وطبيعتها الإحلالية الناسخة للغة الأم التي هي العربية، وتعويض ذلك بنمط ثقافي وحضاري أوربي.

إن تحليل طريقة نشر اللغة الفرنسية في المغرب العربي يبين أن اللغة تحدث معها آثارا على مستويات مختلفة. على مستوى الأفكار، فلا لغة بدون فكر، كما أن الفكر يرتبط بالأديولوجيا والاعتقادات.

على مستوى الآداب، فاللغة وعاء للمعاني والأدب والفنون، كالشعر والموسيقى والمدارس الفنية، والراوية والقصة والمسرح والسينما.

على مستوى السلوك، أي طريقة التفكير والتصرف والتعامل مع عالم الأفكار أو عالم الأشخاص.

نستنتج بعد الملاحظات السابقة أن اللغة لا يمكن أن تنقل بدون أن تنقل معها مظاهر ثقافية بكل ما تحمله كلمة ثقافية من أبعاد.

وتجنبا للالتباس نؤكد أن المقصود ليس رفض وإنكار تعلم اللغات على اختلافها، وإنما الخطر في ظاهرة الإحلال أو النسخ التي تقوم به لغة مهيمنة على لغة أخرى، أي ما حدث في دول المغرب العربي سواء في فترة الاستعمار ومحاولة القضاء على العربية وإحلال الفرنسية محلها، أو حتى بعد الاستقلال والصعوبات التي تعرضت لها عملية التأصيل والتعريب من طرف النخبة المتشبعة ليس بالفرنسية فحسب، وإنما بما تحمله الفرنسية من ثقافة أوربية، وجهل هذه النخبة للغتها وثقافتها العربية.

وتجدر الإشارة إلى أن نقل الفرنسية وتثبيتها لدى المثقف العربي في المغرب العربي في فترة الاستعمار، كانت محدودة ومركزة على فئة معينة ويعود ذلك في اعتقادي إلى مجموعة من العوامل منها:

أولا: سياسة الاستعمار المتمثلة في تجهيل الشعوب المغربية مع القضاء على ثقافتها الأصلية ليحافظ بذلك على علاقة الغالب بالمغلوب، واعتبار سكان المغرب العربي من المسلمين في درجة دنيا وإطلاق اسم (الأهالي عليهم)(Indigènes)، مع ما تحمله هذه الكلمة من دلالات (التأخر الحضاري والتخلف والبدائية)

لتبرز في المقابل : المغالطة التي تصور الاستعمار كمرادف للحضارة والمدنية التي تحتاجها شعوب المغرب العربي.

وتصبح بالتالي الثورة على الاستعمار ومخططاته عملا همجيا يقوم به بعض أعداء الحضارة والمدنية، وهكذا يتم الترويج لهذه الأفكار وفرضها لتطبيع الاستعمار وأعماله سواء في عقل الإنسان الأوربي، أو حتى عند النخبة التي أصبحت أسيرة الثقافة الاستعمارية.

ثانيا: اعتقاد المستعمر ببقائه في المغرب العربي، ولهذا ركز على فئة محدودة من الأهالي على حد تعبيره لتكون همزة وصل بين الإدارة الاستعمارية وشعوب المغرب العربي، ليضمن بذلك قدرة أكبر على فرض أساليبه ومشاريعه عن طريق هذه النخبة.

ثالثا: المقاومة التي جوبه بها الاستعمار ومخططاته منذ الأيام الأولى للاحتلال، والتي بقت متواصلة حتى تحقق الاستقلال.

هذه المقاومة لم تكن مادية فحسب بل كانت معنوية أيضا تمثلت في محافظة شعوب المغرب العربي على تميزها وهويتها، ورفض الفرنسة والتغريب والتنصير التي كان يقوم بها الاستعمار.

وهذا ما يفسر لنا على الأقل الشراسة التي استخدمها الاستعمار مع المدارس الحرة التي كانت تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم وعلوم الدين، ولذلك كانت قوانينه صارمة جدا في هذا المجال، وسنتطرق لأمثلة عن ذلك لاحقا.

إن ما حققته اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية أليا في المغرب العربي بعد الاستقلال أكبر مما حققته أثناء الاستعمار، ألخص ذلك في هذه النقاط:

– استطاعت النخبة المثقفة ثقافة فرنسية الوصول إلى السلطة السياسية بشكل مباشر أو غير مباشر بحكم سيطرتها على الإدارة ومؤسساتها التي تركها الاستعمار.

– حصول اللغة الفرنسية على الشرعية في مجتمعات المغرب العربي، فبعد أن كان ينظر إليها كلغة المستعمر المفروضة، أصبحت اللغة الرسمية التي تتعامل بها النخبة السياسية سواء في الإدارة أو الاقتصاد أو الإعلام والتربية وحتى إن خالفت الدساتير ذلك فالواقع هو المقياس.

– ظهور نخب سياسية وثقافية تجاهر بضرورة تبني الفرنسية لغة وثقافة، وتعادي في نفس الوقت ما يمكن أن نطلق عليه التعريب أو التأصيل بصورة أعم أي استعادة الهوية والشخصية الوطنية.

– انتشار كبير للفرانكوفونية لتشابك مصالحها مع بقاء الثقافة الفرنسية مسيطرة على الإعلام والإدارة وبالتالي سهل الأمر أمام الرموز والأنماط الثقافية الأوربية للانتشار أكثر في بلدان المغرب العربي.

– السياسة الثقافية الفرنسية والتي تعمل على إدخال دول المغرب العربي في إطار إستراتيجية الفرانكوفونية التي تهدف إلى تحقيق نفوذ الثقافة الفرنسية على حساب الثقافة العربية.

فقد جاء على لسان الكاتب الفرنسي (روجيه كانس Roger Gans) « إن الفرانكوفونية تقاوم جيدا التعريب بالمغرب العربي. » [1] وأيضا « إن الذين يتكلمون الفرنسية يمثلون الفرق العسكرية. » [2] لأنهم ينشرون لغة وثقافة فرنسا، أي الاستعمار الثقافي، ويقول أيضا مبرزا انتشار الفرنسية في الجزائر بعد الاستقلال: « إن تعليم الفرنسية بالجزائر قد ازداد بشكل ملحوظ منذ الاستقلال، حيث بلغ عدد الذين يدرسون في

(1979) بالمدارس الجزائرية ثلاثة ملايين ونصف المليون مقابل خمسمائة ألف في 1962. [3]»

وإضافة إلى ذلك فقد انتشرت مظاهر ثقافية أخرى، تؤثر على سلامة اللغة العربية، وخاصة انتشار لغة مشوهة متكونة من خليط عربي من المصطلحات، أساءت إلى أصالة اللغة العربية، وترتبت عنها مشاكل كثيرة.

2) مشاكل المزج اللغوي في المغرب العربي:

لقد ترتب على انتشار اللغة الفرنسية من جهة أخرى، تأثير آخر له أبعاد نفسية واجتماعية ويمس حتى الشرائح الاجتماعية غير المثقفة، وهو المزج اللغوي (أي مزج اللغة العربية بالفرنسية) أو ما يطلق عليه (الفرانكو أراب).

وهذا ما أدى إلى ظهور لهجة عامية مشوهة الألفاظ، أفقرت اللغة الأصل من كلماتها ومصادرها، وعوضتها بكلمات غريبة عن قواعدها.

والملاحظ أن هذه الظاهرة المنتشرة في المغرب العربي غير موجودة في الدول الإسكندنافية مثلا رغم وجود لغات مختلفة، حيث لا تمزج الإنجليزية مع السويدية أو الدنماركية، أو النرويجية ويعود ذلك لأسباب منها:

-أولا: الإحساس بالدونية لدى أبناء المغرب العربي، إذا أثبتت الدراسات النفسية أن « أفراد المجموعات الإنسانية ذوي المكانة الدونية، يشعرون بأنهم يصبحون في مرتبة أسمى، إذا ما تقمصوا صفات وخصائص الجانب المهيمن عليهم.» [4]

-ثانيا: الظروف التاريخية والثقافية التي عاشتها دول المغرب العربي وعلاقتها بالاستعمار الفرنسي وثقافته، وكيف بدأت العلاقة علاقة غالب بمغلوب.

وقد تطرق (عبد الرحمان بن خلدون) (732-807هـ / 1332-1406م) إلى تلك الظاهرة، حيث يقول: « إن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده.» [5]

ويرجع (ابن خلدون) ذلك إلى عوامل نفسية منها اعتقاد المغلوب الكمال في من غلبه، ولذلك يكون الانقياد له والتشبه به مثل تقليد الأبناء لآبائهم.

وقد أثبتت الدراسات الأنتروبولوجية أن ظاهرة الإحلال الثقافي (Acculturation) تتم في حالة عدم توازن ثقافتين ولغتين إذا « يبدو أن الطرف الذي هو في موقع الدونية والهامشية، بمعناها العام، هو الذي يميل إلى التقبل، أو السماح بتسرب العناصر الثقافية من الطرف المهيمن وليس العكس.

أما إذا كان الجانبان شبه متساويين فإن الدراسات تدل على أن تبادل العناصر الثقافية بينهما أمر غير وارد على العموم.» (6)

وهذا ما يفسر إلى حد ما المزج اللغوي في المغرب العربي، وغياب الظاهرة في الدول الاسكندنافية حيث لا تمزج الانجليزية مع السويدية أو الدنماركية أو النرويجية.

نستنتج مدى التأثير الذي يسببه انتشار اللغة الفرنسية في المغرب العربي سواء على المستوى الثقافي أو النفسي أو الاجتماعي، إذا يطلع الفرد في المغرب العربي على الثقافة الفرنسية أكثر من إطلاعه على ثقافته، وينتج عن ذلك إحساس بالدونية وتحقير للذات إلى حد احتقار رموزه الحضارية وتقزيم كل ما هو عربي في مقابل مضخم لكل ما هو أوربي، وتقليد السلوكات الغربية واعتبارها أنماط حضارية نموذجية.

3) وسائل الفرنسة: التكوين والتعليم:

أدرك الغرب مبكرا أهمية التكوين والتعليم في حمل العالم الإسلامي على حضارة الغرب، ولهذا اعتمد على هذه الوسيلة المتمثلة في تكوين نخبة تابعة، ومتشبعة بالقيم الغربية تستطيع فيما بعد أن تكون واسطة لتحقيق النفوذ الغربي في المجتمعات العربية الإسلامية.

وقد اعتمد بشكل كبير على هذه الوسيلة في المغرب العربي سواء أثناء وجود الاستعمار الفرنسي أو بعد رحيله. لأن تغلغل الثقافة الغربية، واللغة الفرنسية، ما كان ليتم دون اعتماد التعليم والتكوين على الأسلوب الغربي والمبادئ الغربية، والتفكير الغربي.

والمقصود بالتكوين مجموعة المهارات والتقنيات التي يتم إكسابها للأفراد لتأدية عمل أو أعمال بشكل دقيق ومنظم.

أما التعليم فأعم حيث يعني نقل مجموعة معارف ومناهج وبرامج وفق منهجية محددة.

وقد أشرنا سابقا إلى المغرب العربي أعتبر فضاء ثقافيا فرنسيا، سواء في فترة الاستعمار أو بعدها، لذا ارتبط التكوين والتعليم بالثقافة الفرنسية.

ولما كان التكوين والتعليم وسيلة من وسائل التغريب، فقد اعتمد على التبشير والاستشراق، إذا ما كان التبشير، ولا الاستشراق يستطيعان أن يحققا شيئا دون الاعتماد على النشاط التعليمي والثقافي عن طريق المدارس والجامعات والإعلام ونشر الكتاب.[7]

إن وجود الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي جعل هذا الأخير حقل تجارب لكل أدوات ومناهج وأهداف التغريب، وفي أقصى أشكاله التي تمثلت في عملية مسخ شاملة تهدف إلى القضاء على الهوية العربية الإسلامية، وإحلال نمط ثقافي غربي محلها، وبشكل خاص في الجزائر مقارنة بدول المغرب العربي الأخرى.

أدرك الاستعمار الفرنسي منذ البداية أنه يصطدم بأرضية فكرية صلبة تمثلت في عقيدة ولغة وانتماء شعوب المغرب العربي إلى الإسلام، وأن أهدافه لا يمكن أن تنجح إن لم يخل لها المجال.

اتجه الاستعمار الفرنسي في نشر ثقافته إلى القضاء أولا على الثقافة المحلية التي أعاقت الفرنسة، وشكلت أمامها سدا منيعا.

ولذلك تناولت مخططاته معالم الثقافة العربية الإسلامية بالتهديم والتشويه، فقامت السلطات الاستعمارية بمنع التعليم الديني واللغة العربية وغلق المدارس الإسلامية، وأحل مكانها المدارس الفرنسية العلمانية التي تعتمد الفرنسية لغة تدريس، والثقافة الأوربية برنامج دراسة، والعلمنة أسلوب تعليم للقضاء على الهوية العربية الإسلامية.

دخل المسلمون في المغرب العربي في معارك غير متكافئة مع الاستعمار، فقد كان يملك كل الوسائل المادية لفرض خططه، وتسرب شيئا فشيئا الفكر الأوربي إلى النخبة المثقفة من أبناء المغرب العربي عن طريق مناهج التعليم.

وكانت جهود مخططي التغريب ترمي إلى « فصل التعليم المدني عن التعليم الديني، و لم تكن مؤسسات التعليم في الديار الإسلامية تعرف هذا الفصل.» (8)

ثم تضافرت جهود المبشرين والمستشرقين في تأسيس المؤسسات، وتأليف كتب ومصادر تعرض التراث الإسلامي، وتدرسه في المعاهد وفق المناهج الاستشراقية.

إلا أن سياسة التكوين والتعليم المعتمدة أثناء الاستعمار الفرنسي لم تكن تهدف إلى تعليم كل أفراد الشعب، بل نخبة قليلة تدعم مخططات الاستعمار، وتسهل له السيطرة على مقدرات الشعوب، وتيسر له فهم عقلياتهم وتطلعاتهم. ورغم سياسة التجهيل التي اعتمدها الاستعمار فلم يكن يقول الحقيقة للنخبة المتعلمة، بل وضع البرامج التعليمية التي تنسجم مع أغراض السيطرة وكراهية الإسلام، مصورا في نفس الوقت الإسلام عقبة أمام التقدم، واللغة العربية عقيمة متخلفة على حمل العلم والتقنية.

وفي ظل السيطرة الاستعمارية أصبح التعليم والتكوين، وأسلوب النشاط الفكري جزء من السياسة الثقافية الاستعمارية.

إذ الهدف تكوين فئات تقوم بأدوار تنسجم وما يريده الاستعمار الفرنسي، « لأنه تم استعمار المعرفة نفسها: إن المعرفة المستعمرة (بفتح الميم) تحافظ على التركيب السلطوي الهرمي للمجتمع.» (9)

بمعنى أن هذه السياسة التعليمية التي اعتمدها الاستعمار، وتواصلت بعد رحيله ترسخ السيطرة للأقلية المغتربة لتتحكم في مصير الأغلبية في المجتمع، فقد قامت المدارس والجامعات بإعداد الطلبة والموظفين من الوطنيين لينخرطوا « في سلك البيروقراطية المتحكمة التي تشكل جزء مهما من النخبة المحلية التي تقوم بدور الوسيط المخلص بينها

وبين السكان والوطنيين، لقد تكفلت المدارس والكليات والجامعات الغربية العديدة في العالم العربي بأداء مثل هذا الدور.» [10]

هذا ما جعل إلى اليوم بنية المدارس ومحتوى التعليم نفسه، وطبيعة البرامج والقيم مستمدة من الغرب وتخدم حاجاته وأهدافه الاقتصادية والسياسية والثقافية.

إن ما حققه التغريب عن طريق التكوين والتعليم، مازالت آثاره ماثلة إلى اليوم، من خلال سيطرة الفرنسية في معاهد التكوين والجامعات، أو في البرامج والمقررات الدراسية المعمول بها في دول المغرب العربي.

كما أن النخبة المغتربة أصبحت تراهن على أساليب الغرب في التربية والتعليم، وتدعوا جهارا إلى مدرسة تعتمد الفرنسية لغة التدريس، والفكر الغربي موضوع دراسة. وتقوم هذه النخبة بإنكار العربية، والثقافة الإسلامية، مستغلة حالة التخلف والتبعية الاقتصادية القائمة.

وسيظل في اعتقادنا نظام المدارس الذي أنشأه الاستعمار قويا ومتماسكا، يقوم بالدور الذي أوكل إليه في تكوين وسطاء مخلصين للمشروع التغريبي، طالما بقية حالة التبعية الاقتصادية والثقافية قائمة.

وتبقى أيضا مؤثرات الغزو الفكري، وقيم الحضارة الغربية تتسرب وبشكل أوسع وأخطر عبر وسائل الإعلام والمؤسسات التعليمية التي تعتمد برامج الغرب وقيمه.

كما تعمل جامعات ومراكز البحث الأوربية على اصطياد الطاقات الفكرية من دول العالم الثالث، وخاصة العباقرة لاستغلال إمكانياتهم، والاستفادة منهم، وحرمان بلدانهم من إبداعاتهم.

إن تكوين أبناء المغرب العربي في الخارج لم يعد يخفي على أحد مقدار المشاكل التي يسببها، إذ تدفع دولنا أموالا وعقولا لتفقدهما الاثنين معا في أغلب الحالات.

وتكسب الدول الأوربية في المقابل عقولا مهاجرة تساهم في تطور العلم عندهم[11] ولا تخسر شيئا في حالة رجوع هؤلاء الباحثين إلى بلدانهم، إذ يكونون قد

أشبعوا بالقيم الغربية، وأنماط التفكير الأوربية ليدافعوا عن النموذج الثقافي الأوربي في بلدانهم الأصلية.

المحور الثاني: اللغـــــة العربية والتأصيل:

1) أصالة اللغة العربية في المغرب العربي:

تكلمنا عن اللغة في المحور السابق كوسيلة غزو، وقصدنا بذلك اللغات الأجنبية عامة واللغة الفرنسية خاصة، والتي استخدمت كآلة غزو وهيمنة في المغرب العربي.

ونتناول في هذا المحور (اللغة العربية) كعنصر مهم من المجال الفكري الذي تعرض للغزو فالمقصود باعتبارها الحصن الذي يحمي قيم وفكر الأمة العربية.

وقبل التطرق إلى ما تعرضت له اللغة العربية من محن وتحديات، نود الإشارة إلى ملاحظات نراها ضرورية، وهي:

– أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية والأصلية لشعوب المغرب منذ أربعة عشر قرنا.

– قدست الشعوب العربية والإسلامية اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم، ولهذا ازدوجت وظيفة اللغة العربية، فهي لغة العقيدة والدين، ولغة الثقافة والتعامل بين الناس.

– ومما سبق ذكره حدث ربط بين العروبة والإسلام، حيث لا يوجد فصل بينهما لدى الإنسان في المغرب العربي، إذ يطلق لفظ العربي على المسلم والعكس بالعكس، وأصبحت اللغة العربية أساسا إلى جانب الدين من أسس شخصية الإنسان في المغرب العربي.

أردنا من الملاحظات السابقة أن نبين طبيعة العلاقة الحميمة التي وجدت بين اللغة العربية والإنسان في المغرب العربي، ومنه نتصور كيف أن الاستعمار الثقافي وأدوات الغزو المختلفة قد استهدفت روح الأمة، وذلك بفصل الإنسان عن جزء منه وهو اللغة العربية وإحلال بديل غريب عنه هو الفرنسية.

2) صمود اللغة العربية أمام التغريب:

استهدف التغريب اللغة العربية في المغرب العربي بوسائل مختلفة، وعبر مراحل تاريخية طويلة بدأت بوجود الاستعمار الفرنسي، وتواصلت بعد رحيله.

وقد تنوعت الوسائل حسب الظروف المختلفة التي مر بها المغرب العربي. إذ تعرضت اللغة العربية لمحاولات هدم أشد شراسة منها أثناء الاستعمار، باستخدام وسائل مباشرة.

بينما تغيرت الوسائل مع زوال الاستعمار وأصبحت غير مباشرة، وهي متخفية في ثوب المناهج العلمية، والدراسات الاجتماعية المنادية بحرية الفكر، وديمقراطية التعلم، والحق في التعددية اللغوية، وإحياء التراث...إلى غيره من هذه الشعارات التي لا تستهدف سوى أمر واحد هو القضاء على اللغة العربية.

كما سبق أن ذكرنا تعرضت اللغة العربية أثناء الاستعمار إلى هجوم شرس للقضاء عليها تماما. وكان ذلك من خلال غلق المدارس والزوايا والمساجد التي تعلم بالعربية، وحظر استعمال اللغة العربية في المجال الرسمي حظرا مطلقا، فلا تقبل الوثائق في الإدارة إلا بالفرنسية.(12)

في المقابل كانت الفرنسية تعمل عملها في المجال الاجتماعي، فكانت كل الأشياء بالفرنسية، عناوين الرسائل، أسماء الشوارع والمحلات والأماكن العامة، إشارات المرور، وذلك لدفع الناس لتعلم الفرنسية رغما عنهم للتكيف مع هذا الواقع المفروض، وأيضا لنشر الثقافة الفرنسية من خلال تغليف الواقع الاجتماعي بمظاهر الثقافة الفرنسية.

وتواصلت السياسة الاستعمارية للقضاء على اللغة العربية بالمنع والتضييق لإزالتها من الواقع الاجتماعي، ومن النفوس أيضا، ولولا ارتباطها كما سبق أن ذكرنا بالعقيدة لما بقي منها شيء، لأن ارتباط شعوب المغرب العربي بعقيدتها، وممارستها لواجباتها الدينية حفظ اللغة العربية من الزوال.

وفي الموازاة مع ذلك عمد بعض المستشرقين ودعاة الغزو الفكري إلى استخدام وسائل أخرى لا تقل عن سابقاتها لتفتيت اللغة العربية من الداخل، وكان ذلك بتشجيع اللهجات العامية لإبعاد اللغة الفصحى، وفصل شعوب المغرب العربي عن بعضهما وعن الأمة العربية في المشرق.

وقد نشط البعض مثل المستشرق الفرنسي (هـــ-بيرس H-Peres) (1890-؟) في هذا المجال، وخاصة من خلال الإشراف على وضع الكتب المدرسية باللهجة العامية [13]، بدعوى أن اللغة المتداولة في المغرب العربي هي اللهجة العامية، ومازالت هذه الدعوى تجد من يرددها اليوم وخاصة لعرقلة التعريب.

ولنتصور الخليط الذي ينشأ، وتأثيره في تشويه اللغة العربية الفصحى، وإبعاد مجتمعاتنا عن لغة القرآن ليصعب الرجوع إليها فيما بعد.

كما حاول مخططو الغزو الفكري العمل على إحياء اللهجات المحلية، كالبربرية والتارقية والمزابية والشاوية والشلحية...وذلك لتمزيق وحدة الأمة في المغرب العربي، لأن إحياء لهجة لكل منطقة يؤدي إلى تباعد المسافات الفكرية والمعنوية بين أفراد ومجتمعات المغرب العربي، وأيضا إلى إحياء النعرات والعصبيات التي يحاربها الإسلام فتتولد لهجات وعرقيات تزيد في تمزق واندثار الروابط الفكرية واللغوية بين أفراد الأمة الواحدة.

لم يكن الأمر يستهدف اللغة فحسب وإنما كان المقصود ما تحمله من عقيدة، ولهذا اعتقد دهاة التغريب أن إحياء اللهجات المغاربية القديمة يؤدي إلى تخلي شعوب المغرب العربي عن لغتها العربية وبالتالي عن إسلامها، وإحياء الثقافات والممارسات غير الإسلامية وإحلالها محل العقائد والقيم الإسلامية ويبرر كل ذلك بإحياء التراث الشعبي أو الثقافة البربرية التي عرفتها المنطقة.

مع العلم أن إحياء التاريخ القديم لا يمكن أن يكون إلا للاعتبار لا غير، كما أنه لا يمكنه أن يلغي أربعة عشر قرنا من التاريخ والحضارة العربية الإسلامية.

وقد استخدمت نفس الوسيلة في المشرق العربي بالعمل على إحياء النعرات الجاهلية كالفرعونية والفينيقية والأشورية والبابلية، ودفع بعض المفكرين العرب لتبني تلك الدعوة.

وتزامن ذلك إلى الدعوة إلى إصلاح اللغة العربية، بكتابة حروفها باللاتينية ★ ، أو استبدال إحدى اللهجات العامية باللغة العربية في الكتابة، وتوهم البعض أن ذلك كفيل بإحداث التقدم والتطور في مجالات الفنون والآداب، واستطاعت هذه الدعوى أن تجد من يرددها في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، كالمقالات التي كتبها أحد أعضائه يدعى (عيسى إسكندر المعلوف) عن اللهجة العربية العامية، لتعويض الفصحى.(14)

كما تقدم عضو من أبرز أعضائه وهو(عبد العزيز فهمي) في سنة 1943 باقتراح كتابة العربية بالحروف اللاتينية، وشغِل المجمع ببحث اقتراحه عدة جلسات، امتدت خلال ثلاث سنوات.(15)

ويمكن تفسير أسباب هذه الدعوات وتأثيرها بربطها بقدرة التأثير التي أحدثها الغزو الفكري مع بداية القرن العشرين، وأيضا بقوة تأثير واختراق أفكار التغريب عن طريق تسلل أخطر المستشرقين وأكثرهم عداء للحضارة العربية الإسلامية إلى المجامع اللغوية العربية في بدايات تأسيسها أذكر من بينهم (هـ. جيب 1895-1971م)، ولويس ماسينيون (1883-1962م)، د س. مرجليوث (1858-1940م) أ.ج. فيسنيك (1882-1939م).

واستطاع هؤلاء أن يطلقوا كثيرا من الشبهات وأن يكونوا في بلدانهم كثيرا من العرب المتغربين عن حضارتهم، والذين أصبحوا أدوات للتغريب في بلدانهم، واستطاعوا بعد ذلك أن يقوموا بكثير من الأعمال التي لم يقدر عليها المستشرقون أنفسهم، ذكرنا تلك الأعمال سابقا وخاصة تبني كثير من الأفكار التغريبية في بلدانهم.

الخلاصة:

في الأخير نتوصل إلى أن سياسة التغريب وإن نجحت في التضييق على اللغة العربية، وفرض اللغة الفرنسية إلا أنها لم تستطع القضاء على اللغة العربية ومكانتها في المغرب العربي، رغم اختلاف الحال بين دول المغرب العربي في سياساتها وتصديها لمخططات التغريب والفرنسة، إذ اعتمد في الجزائر على سياسة جريئة وقوية للتأصيل والتعريب، نجحت إلى حد كبير نظرا إلى إمكانيات الجزائر الكبيرة الاقتصادية، واستقلالية قرارها السياسي والاقتصادي، في حين عانت الدول الأخرى نظرا إلى ارتباط اقتصادياتها بالرأسمال الغربي، واعتمادها على السياحة.

في حين صمدت اللغة العربية لكل التحديات التي تعرضت لها، وقد قاومت معاول الهدم، وتكالب الأعداء، وعقوق الأبناء، وخرجت منتصرة، والواقع أنها تعيش منذ أكثر من ألفي سنة دون أن تندثر، وقد اندثرت وتغيرت لغات أخرى أحدث منها نسبيا كاللاتينية، ولا يفسر ذلك في اعتقادنا إلا بوجود بذور الخلود في هذه اللغة، والحقيقة كذلك عندما ندرك أنها تحمل كلام الله الأزلي، فهي لغة عقيدة وشريعة. كما حملت تراث وحضارة العرب العلمية والثقافية، وهي كفيلة بأن تستعيد مكانتها من خلال أعمال أبنائها، لأنها صورة لإبداعاتهم الفكرية.

---

1) روجيه كانس Roger Gans دراسة: من سيتكلم الفرنسية سنة2000، جريدة (Le Monde الفرنسية) عدد 1979/12/5.

2) المرجع نفسه.

3) المرجع نفسه.

4) محمود الذوادي: التخلف الثقافي النفسي في مجتمعات الوطن العربي، بحث في كتاب نحو علم اجتماع عربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1986، ص170.

5) عبد الرحمان بن محمد بن خلدون: مقدمة بن خلدون، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، لبنان، ب ت، ص147.

6) المرجع نفسه، ص164.

7) ينظر صابر طعيمة، أخطار الغزو الفكري على العلم الإسلامي، عالم الكتب، بيروت، 1984، ص45، 46.

8) المرجع نفسه، ص45.

9) سميح فرسون: الغزو الثقافي للعالم الإسلامي، بحث في الخطة الشاملة للثقافة العربية(4مجلدات)، المجلد3، القسم3، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت، 1986، ص1196.

10) المرجع نفسه، ص1197.

11) تنظر ندوة هجرة الكفاءات العربية، بحوث ومناقشات الندوة التي نظمتها اللجنة الإقتصادية لغربي أسيا (أكوا) للأمم المتحدة في بيروت سنة1980، وقد نشرت من طرف مركز دراسات الوحدة العربية، تحت إشراف، أنطوان زحلان، بيروت، ط3، 1985.

12) ينظر أحمد بن نعمان: التعريب بين المبدأ والتطبيق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص166.

13) ينظر المرجع نفسه، ص169.

*) استخدام الحروف اللاتينية تجربة عرفتها تركيا للابتعاد عن العروبة والإسلام، والتشبه بأوربا إلا أن ذلك لم يحول تركيا إلى دولة أوربية متطورة.

14) ينظر محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط6، 1983، ج 2، ص362.

15) المرجع نفسه، ص363.